الدرس السابع

الحديث الرابع

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يُرسل إليك الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وعمله وأجله وشقيٌ أو سعيد فو الله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"

رواه البخاري ومسلم

شرح الشيخ :

هذا الحديث حديث عظيم في أمر غيبي من أمور الإيمان أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام ؛ ولهذا صدَّر الصحابي الجليل بن مسعود روايته للحديث بقوله حدثنا الصادق المصدوق ؛ لأن الحديث الذي سيرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم يتعلق بأمر غيبي أخبر عنه عليه الصلاة والسلام ، وهو صادق مصدوق لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، صادق عليه الصلاة والسلام فيما يقوله وفيما يرويه وفيما ينقله وفيما يخبر به صلوات الله وسلامه عليه فأخباره كلها صدق لأنها وحيٌ من الله ، وأحكامه كلها عدل ، وهو مصدوق ومؤيد من الله جل وعلا .

الحديث فيه بيان لأطوار خلق الإنسان ، وأنه تكون أول ما تكون من نطفة استقرت في رحم الأنثى ، ثم بدأت في الرحم في أطوار يتكون من خلالها الجنين ؛ فتكون نطفة ثم تكون علقة ثم تكون مضغة ثم بعد ذلك ينفخ فيه الروح ، ثم يُكتب على هذا الإنسان وهو في رحم أمه ما سيعمله وما سيطعمه وموعد وفاته .. ؛ كل ذلكم يُكتب عليه قبل أن يخرج إلى هذا الوجود ويرى هذه الدنيا .

ثم بين في تمام الحديث أقوال الناس من حيث الخواتيم ؛ إنما تكون بما سبق للإنسان في الكتاب الذي كُتب عليه ؛ فإن سبق له في الكتاب ؛ خيراً خُتم له بخير ، وإن سبق له في الكتاب الموت على الشقاوة والعياذ بالله ؛ خُتم له بهذه الخاتمة .

الحديث حديثٌ عظيم في باب الإيمان بالقدر ، وأن الأمور كلها بتدبير الله وبقضائه سبحانه وتعالى ، وأن أعمال العباد وأرزاقهم وآجالهم ؛ كل ذلكم كُتب ؛ كُتب أولاً في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكُتب ثانياً على كل إنسان بعينه في رحم أمه ، والأول يسميه العلماء التقدير العام ، وهذا يسميه أهل العلم التقدير العمري ـ أي الذي يتعلق بعمر كل إنسان من حين أن يخرج إلى هذه الدنيا إلى أن يغادر هذه الدنيا ـ ، وهناك تقدير آخر وهو التقدير السنوي الذي يكون في ليلة القدر ؛ كما قال سبحانه وتعالى {فيها يفرق كل أمر حكيم} ؛ أي يُكتب كل ماهو كائن إلى ليلة القدر من العام القادم . وكذلك التقدير اليومي ؛ يقول تعالى { كل يوم هو في شأن } ؛ يحي ويميت ، ويعز ويذل ، ويعطي ويمنع ، ويهدي ويُضل ؛ الأمر بيده جل وعز .

وحديث بن مسعود حديث عظيم في هذا الأمر الغيبي ، ومن خصائص أهل الإيمان وأبرز صفاتهم الإيمان بالغيب كما ذكرت صفاتهم هذه في أول القرءان ؛ يقول تعالى {هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب} ؛ أي الذين يؤمنون بكل ما غاب عنهم مما أخبرتهم به رسل

الله ؛ لأن الرسل لا يقولون إلا ما هو وحيٌ من الله ، ومما اتفقت عليه كلمة المرسلين الإيمان بالقدر ؛ فهذا أصل ثابت وعقيدة مستقرة لدى جميع الأنبياء ؛ فكل نبي دعى أمته إلى الإيمان بالقدر ، وبيَّن لأمته أن الأمور كلها بقدر الله ، وأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وأمور العقيدة أمور مستقرة وثابتة ومتفق عليها بين الأنبياء ، فلا خلاف بين نبي وآخر في شيء من أمور الاعتقاد وإنما يختلف الأمر بينهم في الشرائع والأحكام {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً} ؛ ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام " نحن الأنبياء أبناء علات ديننا واحد وأمهاتنا شتى " ؛ ديننا واحد أي عقيدتنا واحدة .

فالإيمان بالقدر عقيدة مستقرة وثابتة ودعى إليها كل نبي بعثه الله ، وهي من الإيمان بالغيب لأن القدر أمرٌ مغيب ، وكما قال بعض السلف : " سر الله في خلقه " ، والله جل وعلا على كل شيء قدير ، ومحيط علمه سبحانه وتعالى بكل شيء ومشيئته جل وعلا نافذة ، وهو الخالق لكل شيء ، ولا رب سواه سبحانه وتعالى .

حديث بن مسعود حديثٌ عظيم ؛ عندما يقرأه المسلم متأملاً مضامينه ، متدبراً دلالاته مؤمناً بما جاء به ؛ يحصل له من هذا الحديث أثرٌ مبارك بقوة الرجاء بالله والخوف منه سبحانه وتعالى ، وقوة التعلق بالله والتوكل على الله جل وعلا ، إلى غير ذلك من الثمار والآثار التي تجنى من هذا الحديث المبارك .

قال الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله تعالى في شرح هذا الحديث :

[قوله وهو الصادق المصدوق : معناه الصادق في قوله المصدَّق فيما جاء به من الوحي ، وإنما قال بن مسعود هذا القول لأن الحديث عن أمور الغيب التي لا تُعرف إلا عن طريق

الوحي] .

شرح الشيخ :

لما كان الحديث يتعلق بأمر غيبي وهو من أمور الإيمان التي يُؤتمن فيها المخبِر ، وإذا لم يكن مؤتمَناً لا يكون هناك ثقة بما يخبر به ، وربما بقيت النفس شاكةً أو مترددة في قبول الخبر والتسليم ، ولكن إذا كان الخبر الغيبي وارد عن صادق مصدوق لا ينطق عن الهوى فإن النفوس المؤمنة تقبل ذلك بلا تردد ، وتصدق بذلك دون ارتياب ؛ وهذا إنما يكون لأهل الإيمان الذين قال عنه الله سبحانه وتعالى {إنما المؤمنون الذين ءامنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا} ، أما من في قلبه زيغ وعنده ضلال فربما لم يقبل هذا الحديث ، وربما تجرأ على رده أو صرفه عن مدلوله وحقيقته كما يصنع ذلك أرباب الضلال من نفاة القدر وغيرهم من الضالين .

قال : [ثانياً قوله يُجمع خلقه في بطن أمه ؛ قيل يُجمع ماء الرجل مع ماء المرأة في الرحم فيخلق منهما الإنسان كما قال الله عز وجل {خلق من ماء دافق} ، وقال {ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين} ؛ والمراد بخلقه ما يكون منه خلق الإنسان ، وقد جاء في صحيح مسلم " ما من كل المني يكون الولد "] .

شرح الشيخ :

بدأ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث بقوله " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه " ؛ يجمع خلقه : المراد بخلقه أي ما يكون به خلقه من النطفة التي تخرج من الرجل وتستقر في رحم الأنثى فيمتزج ماءه بمائها ، ومن المائين يتكون الجنين في بدء أطواره ، وليس تكون الجنين من كل الماء ولكنه يتكون من بعضه كما قال عليه الصلاة والسلام " ما من

كل المني يكون الولد " ، فالله عز وجل إذا قدر خلق جنين في الرحم عندما يستقر الماء في رحم الأنثى ويمتزج ماءه بمائها ؛ إن شاء الله خلق جنين من هذين المائين خلق بتقديره جل وعلا ؛ ولهذا قال جل وعلا {ألم نخلقكم من ماء مهين} ، وقوله {خُلق من ماء دافق} . والإنسان خُلق من ماء أو من مجموع من مائين ..

وثمةَ ملحظٌ هنا ذكره أهل العلم لمن أُصيب بكبر أو غرور أو خيلاء أو نحو ذلك عندما يذكر أصله وأساس خلقه يجد أنه قد خرج من مخرج البول مرتين ؛ مرةً نطفة من مخرج بول أبيه ، ومرة إنساناً سوياً من مخرج بول أمه ؛ فعلام يتكبر وعلام يغتر وعلام يُصاب بعجب !! ولهذا المغرور المتكبر لا يعرف أصله ولا يعرف حقيقة نفسه وإلا لو تأمل في حقيقة نفسه وتفكر لوجد أن أوله نطفة وآخره جيفة في قبره تأكله الديدان ، ثم هو في هذه الحياة يحمل في بطنه العذرة؛ فلم الكبر ولم الغرور؟

وهذا من الفوائد التربوية التي يجنيها المتأمل في هذا الحديث العظيم .

إن أحدكم يجمع خلقه : عرفنا أن المراد بخلقه أي ما يكون منه الخلق من المائين ـ ماء الرجل وماء المرأة ـ ، وعرفنا أنه ليس من كل المني يكون الولد كما أخبر ذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ؛ فقوله صلى الله عليه وسلم يجمع خلقه أي يجمع ماء الرجل مع ماء المرأة فيُخلق منهما الإنسان ؛ أي من مجموع هذين المائين .

قال : [في هذا الحديث ذكر أطوار خلق الإنسان أولاً النطفة وهي ماء مهين ، وثانياً العلقة وهي دم غليظ متجمد ، وثالثاً المضغة وهي قطعة من اللحم على قدر ما يمضغه الآكل ؛ وقد ذكر الله هذه الثلاث في قوله {يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا

خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة}، ومعنى مخلقة وغير مخلقة : مصورة وغير مصورة ، وأكثر ماجاء فيه بيان أطوار خلق الإنسان قول الله عز وجل {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً ءاخر فتبارك الله أحسن الخالقين } .

شرح الشيخ :

هذا الحديث اشتمل على أطوار خلق الإنسان في الرحم ، وبين فيه النبي عليه الصلاة والسلام أن خلق الإنسان إنساناً سوياً يمر قبل ذلك بمراحل ؛ قال عليه الصلاة والسلام في بيانها " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة " ؛ والمعنى أن النطفة التي تستقر في قرار مكين ـ الذي هو رحم الأنثى ـ تبقى على هذه الحال أربعين يوماً ، وهذه المرحلة الأولى ، ثم تعقبها مرحلة أخرى تستمر أربعين يوماً ؛ وفيها يقول عليه الصلاة والسلام :

" فيكون علقة مثل ذلك " ؛ أي تتحول النطفة ـ التي هي من المني ـ ؛ تتحول إلى علقة ، والعلقة هي قطعة صغيرة ويسيرة جداً من الدم المتجمد ، وتبقى على هذه الحال أربعين يوماً ؛ وهذا معنى قوله " ثم يكون علقة مثل ذلك " ، قال " ثم يكون مضغة مثل ذلك " ؛ أي تتحول بعد الأربعين الثانية أي الثمانين يوم ؛ تتحول إلى مضغة ، والمضغة هي القطعة الصغيرة من اللحم بقدر ما يمضغ في الفم ـ وهذا بيان لأنها قطعة صغيرة ـ وتبقى على هذه الحال أربعين يوماً ، يتم له بعد ذلك مائة وعشرين يوم أي أربعة أشهر ، وحينئذٍ يُرسل إليه الملك..

هذه الثلاث ـ نطفة ثم علقة ثم مضغة ـ ذُكرت في قوله سبحانه وتعالى {يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث} أي في شك وعدم إيمان ؛ {فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة

ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة} أي مصورة وغير مصورة ؛ فذكر هذه الثلاث دليلاً على البعث ، أي أن الذي خلق الإنسان في هذه الأطوار وأوجده جل وعلا ولم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً ؛ قادرٌ على إعادته وبعثه يوم القيامة ؛ فهذا من البراهين والدلائل الواضحات على البعث والنشور . وفي سورة المؤمنون ذُكرت أطوار خلق الإنسان إلى أن أصبح إنساناً سوياً في أجمع آية لأطوار خلق الإنسان ؛ وهي أطوار سبعة اجتمعت في هذه الآية ؛ قال جل وعلا {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين} ، والمراد بالإنسان هنا آدم ؛ لأن آدم خلق من طين ـ أي باعتبار أصله ـ ، وذريته مخلوقة من الماء المهين ، ويُقال الإنسان مخلوق من طين باعتبار أن أصل بني آدم من تراب ؛ مثل ما قال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع " كلكم من آدم وآدم من تراب، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي إلا بالتقوى " .

قال : {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين} ؛ هذا الطور الأول ، {ثم جعلناه نطفة في قرار مكين} ؛ هذا الطور الثاني ، {ثم خلقنا النطفة علقة} ؛ هذا الطور الثالث ، وعرفنا أن العلقة هي القطعة اليسيرة من الدم المتجمد ، قال {فخلقنا العلقة مضغة} ؛ هذا الطور الرابع ؛ أي أن العلقة تتحول إلى قطعة صغيرة من اللحم بقدر ما يمضغ في الفم ، قال {فخلقنا المضغة عظاماً} ؛ هذا الطور الخامس ، هذه المضغة هذه القطعة التي هي لحمٌ تتحول إلى شيء صلب ؛ وهو العظام ، قال {فكسونا العظام لحماً} ؛ هذا الطور السادس ، {ثم أنشأناه خلقاً ءاخر} ؛ أي إنساناً سوياً له يدان وقدمان وسمع وبصر .. إلى غير ذلك من ما خلق الله جل وعلا الإنسان عليه ، {فتبارك الله أحسن الخالقين} ، جاء عن بن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول " خُلق بن آدم من سبع " ، ثم يتلو هذه الآية من سورة المؤمنون ، وقوله " من سبع " : أي سبعة أطوار ، وهذه الأطوار السبعة كلها جاءت مجتمعة في هذه الآيات من سورة المؤمنون .

قال : [رابعاً : في الحديث أنه بعد مضي هذه الأطوار الثلاثة وعدها مائة وعشرون يوماً تنفخ فيه الروح ويكون إنساناً حياً ، وقبل ذلك هو ميت ، وقد جاء في القرءان الكريم أن الإنسان له حياتان وموتتان كما قال الله عز وجل عن الكفار {قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين} ؛ فالموتة الأولى ما كان قبل نفخ الروح ، والحياة الأولى من نفخ الروح إلى بلوغ الأجل ، والموتة الثانية من بعد الموت إلى البعث ، وهذه الموتة لا تنافي الحياة البرزخية الثابتة في الكتاب والسنة ، والحياة الثانية الحياة بعد البعث ، وهي حياة دائمة ومستمرة إلى غير نهاية ، وهذه الأحوال الأربع للإنسان بينها الله في قوله {وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور} وقوله {كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون} ،وإذا وُلد بعد نفخ الروح فيه ميتاً تجري عليه أحكام الولادة من تكفينه والصلاة عليه وخروج العدة وكون الأمة أم ولد ، وكون أمه نفساء ، وإذا سقط قبل ذلك لا تجري عليه هذه الأحكام] .

شرح الشيخ :

هذا الحديث ذكر فيها النبي عليه الصلاة والسلام الأطوار التي يمر بها الإنسان كما تقدم ، وعرفنا أن من هذه الأطوار أطوارٌ ثلاثة وهي: النطفة المستقرة في الرحم لمدة أربعين يوماً ، ثم يلي ذلك طورٌ آخر وهو تحول هذه النطفة إلى علقة لمدة أربعين يوماً ، ثم تحول هذه العلقة إلى مضغة لمدة أربعين يوماً ؛ فيكون بذلك تم له مائة وعشرون يوماً أي أربعة أشهر ، بعد تمام هذه المدة ينفخ فيه الروح ، يرسل إليه الملك ويؤمر بأن ينفخ فيه الروح ، فإذا نفخ فيه الروح دبت فيه الحياة ؛ ولهذا حياة الإنسان تبدأ في الرحم بعد مائة وعشرون .

وإذا تأملنا نجد أن الإنسان في بطن أمه جُمع له بين موت وحياة ؛ كان أولاً غير حي . ميت . ، ثم نفخت فيه الروح فأصبح شيئاً حياً ، وعندما تنتزع منه هذه الروح في آخر حياته يصبح ميتاً ؛ ولهذا الإنسان من حيث الحياة والموت له ميتتان وحياتان ؛ موتة وهو في رحم أمه قبل

أن ينفخ فيه الروح ، ثم بعد ذلك ينفخ فيه الروح فيصبح حياً إلى أن تقبض روحه ، ومنهم من تُقبض روحُه قبل أن يخرج من الرحم بلحظات ، ومنهم من تقبض روحه وهو يخرج من الرحم ، ومنهم من يعيش أياماً قلائل ثم تُقبض روحه ، ومنهم يمتد عمرُه إلى ما كتب الله له من حياة .. ، فإذاً موتة ثم حياة ، فإذا قبضت روحه دخل في عداد الموتى ، ثم بعد ذلك عندما ينفخ في الصور ؛ تعاد الروح إليه ويحي الحياة الأبدية إما في سعادة ونعيم أو في عذاب وجحيم نسأل الله العافية ؛ فكل إنسان له موتتان وحياتان ؛ ولهذا قال الله عز وجل عن الكفار {قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين} ؛ الموتة الأولى قبل نفخ الروح والثانية قبل نزع الروح ، والحياتان : الأولى بعد النفخ في الروح ، والثانية بعد النفخ في الصور؛ ومثل ذلك ما جاء في قوله تبارك وتعالى { وهو الذي أحياكم ثم يميتكم } ؛ أحياكم : أي بعد أن كنتم أمواتاً لأنه كان ميتاً لا حياة فيه ، { ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور} ، كذلك قوله سبحانه وتعالى {كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً} ؛ أي عندما كان الإنسان في الرحم قبل أن ينفخ فيه الروح ، {ثم أحياكم} أي بنفخ الروح في الإنسان عندما كان جنيناً في رحم الأم ، {ثم يميتكم} أي بقبض الأرواح ، {ثم يحييكم} أي بعد النفخ في الصور ، فهذه موتتان وحياتان كتبها الله سبحانه وتعالى على الإنسان .

ومن الأحكام المستفادة هنا أن الجنيين إذا وُلد بعد نفخ الروح فيه ميتاً بعد أن يكون أكمل مائة وعشرين يوماً ؛ تجري عليه أحكام الولادة المعروفة ؛ ومنها أنه يغسل ويصلى عليه ، أما إذا سقط قبل ذلك أي قبل مرحلة نفخ الروح ؛ فلا تجري عليه هذه الأحكام .

قال : [خامساً بعد كتابة الملك رزقه وأجله وذكر أو أنثى وشقياً أو سعيداً ؛ لاتكون معرفة الذكورة والأنوثة من علم الغيب الذي يختص الله تبارك وتعالى به ؛ لأن الملك قد علم ذلك ، فيكون من الممكن معرفة كون الجنين ذكراً أو أنثى] .

شرح الشيخ :

مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، ومن هذه الخمس {يعلم ما في الأرحام} ؛ فهذا مما اختص الله تبارك وتعالى بعلمه ، وأورد بعض الناس إشكالاً فقالوا الآن مع الطب الحديث وأجهزة الأشعة ؛ أصبح من الممكن معرفة الجنين أهو ذكر أو أنثى وهو لا يزال في رحم الأم ؛ فأشكل ذلك على بعض الناس من جهة أن الآية تدل على اختصاص الله تبارك وتعالى بعلم ما في الأرحام ، وهذا الحديث ـ حديث بن مسعود ـ فيه جواب على هذا الإشكال و الإيراد ؛ لأن الملك عندما يُؤمر بنفخ الروح فيه يؤمر بكتب أربع كلمات ؛ بكتب رزقه وأجله وذكر أو أنثى وشقي أو سعيد ، فيكون في هذه المرحلة والإنسان لا يزال جنيناً يكون الملك على علم به ، بل يكون على علم بتفاصيل أخرى تتعلق بهذا الجنين ؛ فأصبح الملك على علم بذلك ، فيكون المراد بالآية {يعلم ما في الأرحام} ؛ أي في المرحلة التي قبل ذلك أما هذه المرحلة فالحديث على أن الملك يعلم ؛ فلا إشكال لو قيل أن الطب يعرف هل هو ذكر أم أنثى

قال : [سادساً أن قدر الله سبق بكل ما هو كائن وأن المعتبر بالسعادة والشقاوة ما يكون عليه الإنسان عند الموت] .

شرح الشيخ :

قدر الله سبق بكل ماهو كائن : لأن النبي صلى الله عليه وسلم أقسم بالله قال : "فو الله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع" أي مسافة قليلة جداً ، " فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " ، فإذاً تكرر قول النبي عليه الصلاة والسلام " يسبق عليه الكتاب "

فيمن يكون من أهل الجنة وفيمن يكون من أهل النار ؛ وهذا يفيد أن قدر الله سابق بكل ما هو كائن ، وقدر الله سابق بأهل الجنة وأهل النار ولهذا قال في الحديث " فيسبق عليه الكتاب " ؛ ولهذا يشتد خوف السلف من السوابق والخواتيم أي ما سبق لهم في الكتاب وبما يختم للإنسان ؛ هل يختم له بكلمة الشهادة فيكون من أهل السعادة ، أو بغير ذلك فيكونوا من أهل الشقاوة ، يقول تعالى {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} أي سبق فيما علمه الله جل وعلا من مثاله وما كتبه الله سبحانه وتعالى عليه وما قدره له ، والخواتيم أي ما يختم للإنسان به ، والأعمال بالخواتيم ، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

فمن فوائد هذا الحديث أن قدر الله جل وعلا سابق بكل ما هو كائن ، علم الله ذلك في الأزل وكتب ذلك سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ قبل خلق الناس بخمسين ألف سنة وقبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ قال صلى الله عليه وسلم كما جاء في صحيح مسلم " كل شيء بقدر حتى العجز والكيس " ، وجاء عن بن عباس رضي الله عنهما أنه قال " كل شيء بقدر حتى وضعك كفك في ذقنك " ، فكل ما هو كائن سبق في علم الله وأيضاً كُتب في اللوح المحفوظ { إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير } .

وأيضاً من فوائد الحديث أن المعتبر في السعادة والشقاوة ما يكون عليه الإنسان عند الموت ، قد يكون الإنسان حياته كلها على الكفر ، ثم يشرح الله صدره للإسلام ، ولا يعيش في الإسلام إلا لحظات قلائل ، والعكس ؛ قد يكون الإنسان على الإسلام ثم يرتد ويموت مرتداً والعياذ بالله ؛ فالعبرة في السعادة والشقاوة بالخواتيم .

قال : [سابعاً أحوال الناس بالنسبة للبدايات والنهايات أربع :

مَن بدايته حسنة ونهايته حسنة .

الثانية من كانت بدايته سيئة ونهايته سيئة .

الثالثة من كانت بدايته حسنة ونهايته سيئة كالذي نشأ على طاعة الله وقبل الموت ارتد عن الإسلام ومات على الردة .

الرابعة من بدايته سيئة ونهايته حسنة كالسحرة الذين كانوا مع فرعون الذين ءامنوا برب هارون وموسى ، وكاليهودي الذي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم وعاده النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه وعرض عليه الإسلام فأسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم " الحمد لله الذي أنقذه من النار " وهو في صحيح البخاري ، والحالتان الأخيرتان دل عليهما هذا الحديث] .

شرح الشيخ :

أحوال الناس بالنسبة للبدايات والنهايات أربع :

الحالة الأولى : من بدايته حسنة ونهايته حسنة ؛ يعني ولد على الإسلام ونشأ على الإسلام ومات على الإسلام ؛ فالبداية والنهاية عنده حسنة .

الحالة الثانية : من بدايته سيئة ونهايته سيئة ؛ يكون أبواه يهوديان أو نصرانيان ؛ فهوَّداه أو نصَّراه أو مجَّساه أو غير ذلك ؛ فنشأ من بدايته على الكفر بالله سبحانه وتعالى ، وبقي على هذه الحال إلى أن مات ؛ فالبداية سيئة ونهايته سيئة من حيث أنه نشأ على الكفر ومات عليه .

الحالة الثالثة : من كانت بدايته حسنة ؛ أي نشأ مسلماً وبين أبوين مسلمين وفي مجتمع مسلم ونشأ على الإسلام ، ثم في نهاية المطاف ارتد ومات على الردة ؛ فهذا بدايته حسنة ونهايته سيئة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام " إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها " ؛ فهذا

بدايته حسنة ونهايته سيئة .

الحالة الرابعة : من كانت بدايته سيئة ونهايته حسنة بحيث يكون وُلد بين أبوين كافرين في مجتمع كافر فينشأ على الكفر سواء كان كفره تهوداً أو تنصراً أو تمجساً أو غير ذلك ؛ ثم تكون نهايته حسنة بأن يكتب الله سبحانه وتعالى له هداية يموت عليها ، يهتدي للإسلام ويموت على الإسلام ؛ وهذا كثير والأول قليل ؛ أي كون البداية سيئة والنهاية حسنة هذا كثير ، وكون البداية حسنة والنهاية سيئة هذا قليل .

ومن بدايتهم سيئة ونهايتهم حسنة هم من شرح الله صدروهم من الكفار ، وأحياناً شرح الصدر للإسلام يكون قبل موت الإنسان بأيام أو ساعات قلائل مثل الذي كان يخدم النبي وكان نصرانياً ؛ فعاده النبي عليه الصلاة والسلام في مرضه الذي مات فيه وعرض عليه الإسلام وأسلم ومات ؛ فحمد الله عليه الصلاة والسلام على إسلامه لأن إسلامه نعمة قال

" الحمد لله الذي أنقذه من النار " ، وكذلك السحرة الذين جمعهم فرعون ، وهم أهل سوء وشر في نشأتهم وبداياتهم وحياتهم ، وهم عدد كبير ، ولما رأوا الآية التي أجراها الله سبحانه وتعالى على يد نبيه موسى عليه السلام آمنوا أجمعين ، والسحرة من شرار الخلق وأسوأهم وأشدهم ارتباطاً بالشياطين ؛ ومع ذلك أسلموا أجمعين وكتب الله لهم الهداية أجمعين . والهداية منةُ الله جل وعلا على من شاء عباده { أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه } ، فالهداية بيد الله جل وعلا {يهدي من يشآء ويضل من يشآء} . أذكر قصة عن أحد الحاضرين ، ترك ورقةً ذكر فيها أن جدته كانت على الكفر إلى أن جاوزت التسعين ، يقول ومن سنوات طويلة نحاول معها ونجتهد معها على الإسلام فتأبى ، يقول : وقبل أيام قلائل هداها الله إلى الإسلام ، وماتت بعد إسلامها بثلاث أيام ؛ وهذا يستفاد منه فائدة في باب الدعوة إلى الله أن المريض من الكفار لا ييأس الإنسان من هدايته ؛ فقد تكون هدايته في مرض موته ؛ ولهذا أعرف بعض الدعاة في بعض الدول خصص نفسه في

دعوة المرضى وأخبر أن عدداً من المرضى من الكفار أسلموا وماتوا ؛ عرفوا الإسلام وآمنوا به ونطقوا بالشهادتين وماتوا ؛ فلا ييأس الإنسان ويقول أنه مريض ، ومادام أنه تسعين سنة .. ؛ فيبذل الإنسان السبب ولا ييأس فإذا كتب الله الهداية ولو لم يبق من حياته إلا ساعات هداه الله إلى الإسلام ، ثم إذا دعوته وهداه الله تحمد الله بهذا الذي حمده النبي صلى الله عليه وسلم " الحمد لله الذي أنقذه من النار " .

فالحديث يفيد فائدة عظيمة وهو أن الإنسان لا ييأس مهما كانت شدة كفر من يدعى ومهما كان امتداده في الكفر يُكتب له هداية ولو في اللحظات الأخيرة من عمره .

قال : [ثامناً دل الحديث على أن الإنسان يعمل العمل الذي فيه سعادته أو شقاوته بمشيئته وإرادته وأنه بذلك لا يخرج عن مشيئة الله وإرادته ، وهو مخير باعتبار أنه يعمل باختياره ، ومسير بمعنى أنه لا يحصل منه شيء لم يشأه الله ، وقد دل على الأمرين ما جاء في هذا الحديث من أنه قبل الموت يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة أو يعمل بعمل أهل النار]

شرح الشيخ :

هذا الحديث دلَّ على أن الإنسان يعمل العمل الذي فيه سعادته أو شقاوته بمشيئته ؛ بمعنى أن الإنسان ليس مجرداً من المشيئة ، ليس كما يقوله طائفة من الضلال ؛ يقولون أن الإنسان مجبور على فعل نفسه ، ويقولون أن الإنسان كورقة في مهب الريح ؛ أي مجبور على ما يفعله ولا اختيار له ؛ فهذا كلام باطل لأن النصوص دلت على أن الإنسان له مشيئة بها يعمل ، وحديث بن مسعود نُص فيه على ذلك لأنه قال " يعمل بعمل أهل الجنة " ، وقال في الآخر " فيعمل بعمل أهل النار " ؛ فنسب إليه العمل لأنه باشره بمشيئته ، فالحديث يدل على أن الإنسان له مشيئة به يسلك طريق الخير ، وبها يسلك طريق الشر ...

وهذه المشيئة ليست مستقلة ؛ بل هي تحت مشيئة الله تبارك وتعالى ، ولهذا قال الله تبارك وتعالى {لمن شآء منكم أن يستقيم وما تشآءون إلا أن يشآء الله} .

والحديث أيضاً دل على هذا المعنى لأنه قال " فيسبق عليه الكتاب " أي أن ما يعمله الإنسان هو بمشيئة الله وبما كتبه الله عليه وبما قدره ؛ فيكون الحديث جواباً للسؤال المعروف وهو أنه هل الإنسان مُسيَّر أم مُخيَّر ؟! فإذا قيل في الجواب أنه مسير ـ هكذا على الإطلاق ـ يكون الجواب خاطئاً ، وإذا قيل هو مخير ـ على الإطلاق ـ يكون الجواب خاطئاً ، ولا يكون الجواب صواباً إلا إذا أُخذ مجموع ما دل عليه الحديث وغيره من النصوص وهو أن الإنسان مسير باعتبار ومخير باعتبار ؛ مسير باعتبار أن مشيئته تحت مشيئة الله ، ومخير باعتبار أن له مشيئة يختار بها طريق الخير من طريق الشر ؛ فمن يذهب إلى المسجد يذهب باختياره ، ومن يذهب إلى أماكن الشر يذهب إليها برغبته واختياره ، ولو قُدر أن إنساناً أُكره على شر وأُجبر على فعله ولو كان هذا الشر كفر بالله فلا يحاسبه الله {إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان} ؛ فالإنسان له مشيئة، ومشيئته تحت مشيئة الله ؛ ولهذا قال الشافعي رحمه الله :

ما شئتَ كان وإن لم أشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

قال : [تاسعاً أن الإنسان يجب أن يكون على خوف ورجاء لأن من الناس من يعمل الخير في حياته ثم يختم له بخاتمة السوء وأن لا ينبغي له أن يقطع الرجاء فإن الإنسان قد يعمل بالمعاصي طويلاً ثم يمن الله عليه بالهدى فيهتدي في آخر عمره] .

شرح الشيخ :

من فوائد هذا الحديث أن الإنسان يجب عليه أن يجمع بين الرجاء والخوف وأن يكون معه في الحياة بشكل متوازن ، يرجو ويخاف ، ولا يغلب أحدهما على الآخر ؛ لأنه إن غلَّب الرجاء أمِن من مكر الله ، وإن غلَّب الخوف قنِط من رحمة الله ، واليأس والقنوط من الكبائر

، ولا سلامة منهما إلا بالإتيان والرجاء والخوف بشكل متوازن ؛ ولهذا قال بعضُ أهل العلم :

" ينبغي أن يكون الرجاء والخوف مع الإنسان كالجناحين للطائر " ؛ إذا استقام الجناحان واتزنا استتم الطيران ؛ ولهذا ينبغي على الإنسان أن يكون عنده الرجاء والخوف بشكل متوازن ، ومن يقرأ نصوص الترغيب والترهيب التي تُذكر في الكتاب والسنة متوالية ؛ تجد في القرءان ترغيب وترهيب والسنة فيها ترغيب وترهيب ، يأتي ذِكرُ الجنة وعقبه ذِكر النار ، يأتي ذِكر الثواب وعقبه ذِكر العقاب {نبئْ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم} ؛ أنا الغفور الرحيم : فيه الرجاء ، عذابي هو العذاب الأليم : فيه الخوف ، فينبغي على العبد أن يجمع بين الأمرين .

وهذا الحديث ـ حديث بن مسعود ـ يفيد جداً في هذا الباب،في باب الرجاء والخوف ؛ فإن من الناس من يعمل الخير في حياته ثم يختم له بخاتمة السوء ؛ إذا عرفت ذلك والحديث دلَّ على ذلك ؛ يأتي في القلب الخوف ، والسلف كانوا يخافون من الخواتيم ، ويخافون من السوابق ؛ فإذا قرأ هذا جاء في قلبه خوف ، وإذا قرأ أن الإنسان قد يعمل بالمعاصي طويلاً ومدة من الزمن ، ثم يمن الله عز وجل عليه بالهداية ؛ أيضاً يأتيه في هذا الجانب الرجاء ؛ فينبغي على الإنسان أن يكون في خوف ورجاء ؛ خوف من الخواتيم السيئة ورجاء من الله سبحانه وتعالى أن يحسن له الختام ، وأن يحسن له العواقب ، ويسأل الله تبارك وتعالى أن يختم له بالخاتمة الطيبة .

فالحديث يفيد في هذين الجانبين ـ جانب الرجاء وجانب الخوف ـ .

قال : [قال النووي في شرح هذا الحديث "فإن قيل قال الله تعالى {إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً} ظاهر الآية أن العمل الصالح من

المخلص يُقبل وإذا حصل القبول الكريم أُمِن مع ذلك من سوء الخاتمة ؛ فالجواب من وجهين : أحدهما أن يكون ذلك معلقاً على شروط القبول وحسن الخاتمة ، ويحتمل أن من آمن وأخلص العمل لا يختم له دائماً إلا بخير ، ثانيهما : أن خاتمة السوء إنما تكون في حق من أساء العمل أو خلطه بالعمل الصالح المشوب بنوع من الرياء والسمعة ، ويدل عليه الحديث الآخر " إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس " أي فيما يظهر لهم من أصلاح ظاهره مع فساد سريرته وخبثها ، والله تعالى أعلم] .

شرح الشيخ :

هنا الإمام النووي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث أورد استشكالاً وأجاب عنه بجواب مسدد ؛ الاستشكال قول الله جل وعلا {إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً} ؛ فالآية تفيد أن الذي آمن وعمل الصالحات يحفظ له إيمانه وعمله ولا يضيعه ؛ فأفادت الآية أن من آمن وعمل الأعمال الصالحة أن الله جل وعلا لا يضيع إيمانه ؛ فيُفهم من ذلك أنه يموت على الإيمان ، والحديث فيه أن بعض أهل الإيمان أهل الجنة يسبق عليهم الكتاب حينما يكون بينه والجنة إلا ذراع فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ؛ فبعض أهل العلم أورد استشكالاً في هذا الحديث مع هذه الآية فما الجواب على ذلك ؟ قال النووي رحمه الله : الجواب من وجهين :

أحدهما أن يكون ذلك معلقاً على شروط القبول وحسن الخاتمة ، ويحتمل أن من آمن وأخلص العمل لا يختم له دائماً إلا بخير ؛ فيكون معنى الآية { إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات } ؛ أي أتوا بالإيمان المقبول ؛ فيُختم لهم بهذه الخاتمة ، ولا أحد من الناس يجزم لنفسه بأن إيمانه متقبل ، وقد قال الله تعالى {والذين يؤتون ما ءاتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون} ؛ وعرفنا أن المعنى يقدِّمون ما يُقدَّمون من الطاعات وهم خائفون أن لا تُقبل ؛ فهذا جواب ، والجواب الآخر أن خاتمة السوء إنما تكون في حق من أساء العمل ،

أو خلطه العمل المشوب بالرياء والسمعة ؛ وعلى هذا يُحمل الحديث ؛ لأنه قال " إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع " ؛ يعمل بعمل أهل الجنة لكن هذا العمل الذي كان يعمله مخلوط بشيء في قلبه ؛ يعني ظاهر عمله فيه الصلاح لكن في سريرته شوائب ؛ ولهذا قال العلماء ـ ونقل ذلك بن القيم رحمه الله في كتابه الجواب الكافي ـ لا يعرف خاتمة سيئة لمن صحت عقيدته أي صح إيمانه بالله جل وعلا ، فالله عز وجل لا يضيع إيمانه ، إذا كان على إيمان صحيح بالله يحفظ الله سبحانه وتعالى إيمانه { وما كان الله ليضيع إيمانكم } ، أما إذا كانت له أعمال صالحة ظاهرة كثيرة ولكن سريرته فيها ما فيها من الدخن ؛ فمثل هذا هو الذي عرضة لأن يختم له بعمل أهل النار فيدخل النار ؛ ويدل لذلك أن الحديث جاء في بعض رواياته أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس " وهي زيادة ثابتة ، وهي رواية مفسرة للحديث ومزيلة للإشكال الذي قد يُورد .

فمن فوائد الحديث أهمية إصلاح القلوب بالإيمان والاعتقاد الصحيح، وحسن الصلة بالله، والثقة به والتوكل عليه ، والاجتهاد في إزالة ما يكون في القلب من أمراض وأسقام ، من أمراض هي نوع من النفاق أو نوع من أعمال القلوب السيئة فيحاول أن يجتهد في إصلاح قلبه ، ومن الدعاء المأثور " اللهم آت نفوسنا تقواها زَكِّها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها " ؛ فمن صلح قلبه إستقام على الاعتقاد الصحيح والإيمان القويم بالله وبما أمر سبحانه وتعالى عباده بالإيمان به ؛ مثل هذا لا يختم له بإذن الله تبارك وتعالى إلا بخير ، وأما الخاتمة السيئة لمن كان يعمل الصالحات فهي لمن كانت أعماله صالحات فيما يبدو للناس ، وأما قلبه ففيه ما فيه . فهذا جواب واضح ومستفاد من بعض روايات الحديث ، قال النووي رحمه الله لما ذكر هذه الرواية " إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس" أي فيما يظهر لهم ، من أصلاح ظاهره مع فساد سريرته وخبثها ، ونقل ابن القيم رحمه الله في الجواب الكافي عن بعض أهل العلم أنه لا يُعرف من صحت عقيدته واستقام إيمانه أنه يُختم له

بالخاتمة السيئة ؛ وهذا أيضاً يستفاد من قوله سبحانه وتعالى { يثبت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشآء } .

قال [الحادي عشر مما يستفاد من الحديث :

أولاً : بيان أطوار خلق الإنسان في بطن أمه .

ثانياً : أن نفخ الروح يكون بعد مائة وعشرين يوماً ؛ وبذلك يكون إنساناً .

ثالثاً : أن من الملئِكة من هو موكل بالأرحام .

رابعاً : الإيمان بالغيب .

خامساً : الإيمان بالقدر وأنه سبق في كل ما هو كائن .

سادساً : الحلف من غير استحلاف لتأكيد الكلام .

سابعاً : أن الأعمال بالخواتيم .

ثامناً : الجمع بين الخوف والرجاء وأن على من أحسن أن يخاف سوء الخاتمة وأن من أساء لا يقنط من رحمة الله .

تاسعاً : أن الأعمال سبب دخول الجنة أو النار .

عاشراً : أن من كُتب شقياً لا يُعلم حاله في الدنيا وكذا عكسه] .

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

..*